الدرس الفقهي في توات
خلال القرنين 11 و 12 هـ معالمه و خصائصه

أ.محمد جرادي

جامعة ادرار

تعتبر توات إقليما صحراويا في الجنوب الغربي من الجزائر ، يقع جنوب العرق الغربي الكبير، و شمال صحراء تنزروفت، و إلى شرق عرقي الراوي وشاش، و هو جزء من ولاية أدرار الحالية . هو - على الأصح - إقليم واحد (بسيط) حسب بعض المؤرخين و الرحالة كابن خلدون[1] ، وابن بطوطة[2] ، وأبي سالم العياشي[3] ، و مؤرخ توات ابن عمر البداوي[4] ، حيث يمتد من قصور تسابيت شمالاً إلى قصور رقان جنوباً .

---

[1] انظر : تاريخ ابن خلدون ، اعتنى به : أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الأردن ، د ت: ص 1582 ، و مقدمة ابن خلدون ، دار القلم، بيروت ، ط9 ، 1409 / 1989 : ص 54.

[2] انظر: رحلة ابن بطوطة ، تحقيق : طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط4 ، 1428/ 207 : ص706 .

[3] انظر : رحلة العياشي ، طبعة فاس الحجرية : ج1/ص 20 .

[4] نقل الرواة عن من أبدع قصور توات ، محمد بن عمر بن المبروك البداوي ، مخطوط ، خزانة تنلان، دون رقم : ص15 .

و هو عند آخرين كمحمد بن عبد الكريم التمنطيطي[1] ، و الوثائق المغربية[2] إقليم مركب ، يتألف من ثلاث مناطق (على هيئة هلال يتحلق حول هضبة تادمايت ، مُقعره منطقة توات و قرنه الجنوبي منطقة تيدكلت أما القرن الشمالي منه فمنطقة قورارة)[3] .

هذا الإقليم عريق تاريخه ، ضاربة في الأعماق جذوره ، يشتهر في حاضر الجزائر بعدة مقومات ، فهو واحات للنخيل وافرة المنتوج ، و أرض صحراوية جدباء حولتها عبقرية الإنسان بفضل وفرة المياه الجوفية إلى مستثمرات فلاحية ذائعة الصيت ، ثم منطقة جذب سياحي لما تزخر به من أنماط معمارية عتيقة ونظم للسقي فريدة ، و تراث أدبي و فني ذي شهرة وطنية و دولية .

أما ماضي الإقليم ؛ فتوات التاريخية إحدى الحواضر العلمية الجزائرية الزاهرة، فلا تزال خزائن التراث التي تربو في المنطقة عن الخمسين تحمل على رفوفها من المخطوطات ما يضاهي كبريات خزائن التراث العالمية ، رغم ما نالها من إهمال الإنسان و عوادي الزمن ، كل ذلك يشهد على النشاط العلمي في مختلف صنوف المعرفة التي تعاطاها التواتيون من أدب – نظماً أو نثراً – وفلك و عقيدة و فقه و قضاء و غيرها .

---

[1] درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام ، محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، مخطوط ، خزانة المطارفة ، دون رقم : ص1 .

[2] تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور و وثائق أخرى ، مطبوعات القصر الملكي ، 1962 : ص 3 .

[3] مقال : المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب و إفريقيا الغربية ، محمد أعفيف ، أعمال : العلاقات بين المغرب و إفريقيا الغربية ، منشورات عكاظ ، الرباط ، 1992 : ص50 .

و هو عند آخرين كمحمد بن عبد الكريم التمنطيطي[1] ، و الوثائق المغربية[2] إقليم مركب ، يتألف من ثلاث مناطق (على هيئة هلال يتحلق حول هضبة تادمايت ، مُقعره منطقة توات و قرنه الجنوبي منطقة تيدكلت أما القرن الشمالي منه فمنطقة قورارة)[3] .

هذا الإقليم عريق تاريخه ، ضاربة في الأعماق جذوره ، يشتهر في حاضر الجزائر بعدة مقومات ، فهو واحات للنخيل وافرة المنتوج ، و أرض صحراوية جدباء حولتها عبقرية الإنسان بفضل وفرة المياه الجوفية إلى مستثمرات فلاحية ذائعة الصيت ، ثم منطقة جذب سياحي لما تزخر به من أنماط معمارية عتيقة ونظم للسقي فريدة ، و تراث أدبي و فني ذي شهرة وطنية و دولية .

أما ماضي الإقليم ؛ فتوات التاريخية إحدى الحواضر العلمية الجزائرية الزاهرة، فلا تزال خزائن التراث التي تربو في المنطقة عن الخمسين تحمل على رفوفها من المخطوطات ما يضاهي كبريات خزائن التراث العالمية ، رغم ما نالها من إهمال الإنسان و عوادي الزمن ، كل ذلك يشهد على النشاط العلمي في مختلف صنوف المعرفة التي تعاطاها التواتيون من أدب – نظماً أو نثراً – وفلك و عقيدة و فقه و قضاء و غيرها .

---

[1] درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام ، محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، مخطوط ، خزانة المطارفة ، دون رقم : ص1 .

[2] تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور و وثائق أخرى ، مطبوعات القصر الملكي ، 1962 : ص 3 .

[3] مقال : المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب و إفريقيا الغربية ، محمد أعفيف ، أعمال : العلاقات بين المغرب و إفريقيا الغربية ، منشورات عكاظ ، الرباط ، 1992 : ص50 .

بين إفريقيا جنوب الصحراء ، و قد شكلت توات محطة هامة و مسلكاً متميزاً بفضل عوامله الطبيعية و البشرية .

الثاني : نازلة فقهية : كان لنازلة الفقيه المجاهد و المصلح الاجتماعي الشيخ محمدِ بن عبد الكريم المغيلي الشهيرة بنازلة "يهود توات" أواخر القرن التاسع الهجري دوراً تعريفياً بتوات ، لاسيما في كتب الفتاوى و النوازل .

هكذا كان الفقه أحد أسباب الشهرة و التعريف بالإقليم ، و مع ذلك لا يمكن الحديث عن نهضة علمية و فقهية قبلَ القرن 11 هـ ، لأن البيئة الفقهية لم تكن على طراز المغيلي ، لذلك استنجد خصومه بفقهاء تلمسان و فاس لمعارضة فتواه .

و ليس بخافٍ من تاريخ التشريع الإسلامي أن القرنين 11 و 12 هـ من عصر الضعف الموسوم بالجمود و التقليد، لذا فإننا حين نتحدث عن نهضة علمية لا نعني وجود حالات اجتهادية متفردة أو محاولات تجديدية تخرج عن السياق العام الذي كان عليه الفقه في الغرب الإسلامي برُمَّته ، و الذي وصف الحجوي حال علمائه قائلاً : (فغالب العلماء من المائة الثامنة إلى الآن – القرن 14هـ - لم يُحفظ لهم كبير اجتهاد ، و لا لهم أقوال تعتبر في المذهب أو المذاهب)[1] ، بقدر ما نعني بالنهضة حالة من الحيوية أو الحراك غير المسبوق على صعيد الرحلة و التدريس و التأليف .

و في تقديري فإن تأخر بروز نهضة علمية بتوات إلى التاريخ السالف الذكر تقف وراءه جملة عوامل ، منها الطبيعي و منها البشري :

---

[1] الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، محمد بن الحسن الحجوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1 ، 1995/1416 ، القسم4/ ص451 .

1. موقع الإقليم ؛ فتوات إقليم ناءٍ في صحراء قاحلة ، بعيد عن العواصم العلمية كالقيروان ، بجاية ، تلمسان و فاس ، و عن الطرق المؤدية إليها .

2. الطبيعة الجغرافية للإقليم ؛ كشأن كل الأقاليم الصحراوية ، المعروفة بشدة الحر و الجفاف و ندرة في التساقط و في المياه السطحية ، و عدم خصوبة في التربة و قلة المرعى ، و هو ما يتطلب من ساكنة هذه الأقاليم جهداً شاقاً متواصلاً من أجل البقاء و توفير أسباب المعاش ، يكون صارفاً لهم عن الانقطاع للعلم و تحصيله .

3. من المعلوم أن اللغة العربية هي وسيلة بث العلوم الشرعية ، و العنصر العربي طارئ على توات بمجيء قبائل بني معقل و استيطانها الإقليم في القرن السادس الهجري ، أما أصل الساكنة فالبربر[1] الصنهاجيون ثم الزناتيون .

4. انعدام السلطة و الاستقرار السياسي ؛ حيث ظلت توات عرضة للتقلُّبات، و كونها مسلكاً تجارياً مهماً صوب أسواق إفريقيا جعلها محط أطماع الدويلات التي نشأت بالمغرب ، فتعرَّضت لغزو المرينيين و السعديين والعلويين. و عندما حاول الإمام المغيلي إنشاء إمارة بتوات قوامها العلم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و بث الدعوة إلى ربوع إفريقيا ، بعد نجاحه في إجلاء اليهود عنها سنة 882 هـ ، تواطأ عليه الوطاسيون فاغتيل قائد جيشه و هو ابنه عبد الجبار عام 899 هـ ليتبخر معه حلم المغيلي .

5. ندرة الأعلام ؛ فوقود كل نهضة هم الأئمة الأعلام و رواد المعرفة ، ومن عُرفوا بالفقه و القضاء في توات قبل القرن 11 هـ قِلة كلهم وافدون على الإقليم ،

---

[1] أنظر : درة الأقلام ، مصدر سابق : ص 1 .

كالقاضي عيسى بن محمد البطيوي الذي دخل توات سنة 714هـ[1] ، و الفقيه أبو يحي بن محمد المنياري الذي نزل توات سنة 815 هـ[2] ، ثم الشيخ يحي بن يدير التدلسي الذي حل بتوات سنة 845 هـ [3] ، ثم كان خاتمة الوافدين و أشهرهم على الإطلاق الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي حل بتوات سنة 870هـ[4]، و غيرهم .

تلك القِلة هي التي دفعت جيل التأسيس إلى الرحلة بحثاً عن الفقه مشرقاً و مغرباً ، و في هذا يعترف أشهر أعلام توات الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني(ت 1152 هـ) أن دافعه للرحلة كون بلاده شاغرة من العلماء[5].

عوامل التطور الفقهي :

اشتركت مجموعة من الأسباب في إحداث نقلة نوعية و وثبة معتبرة، من مرحلة المحاولات الفردية المتباعدة زماناً و الضيقة مكاناً لفقهاء و قضاة إلى المرحلة التي برز فيها نضج علمي يجسده تزايد في تعداد الزعامات الفقهية في مختلف جهات الإقليم، و وفرة في المنتوج الفقهي سيأتي الحديث عنه في معالم التطور، و من أهم تلك العوامل:

---

[1] النبذة في تاريخ توات و أعلامها ، عبد الحميد بكري ، دار الهدى ، عين مليلة ، 2005 : ص 62 .

[2] القول البسيط في أخبار تمنطيط ، ابن بابا حيدة ، تحقيق : فرج محمود فرج ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007 : ص 205 .

[3] مرجع سابق : ص 206 .

[4] محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره و آثاره ، رسالة ماجستير ، أحمد الحمدي ، جامعة وهران ، قسم الحضارة الإسلامية، 2000 : ص35 .

[5] قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، محمد عبد العزيز سيد عمر ، دار هومة ، الجزائر ، 2002 : ص 83 .

1- **الرحلات** :

شهد آخر القرن الحادي عشر و مطلع القرن الموالي عدداً معتبراً من الرحلات التي أسهمت بشكل مباشر و كبير في تغيير الواقع العلمي ، و قد سبقت الإشارة إلى أن ندرة الأعلام في الإقليم كانت دافعاً لطلبة العلم من ذوي الهمم العالية إلى السفر بعيداً بحثاً عن الشيوخ ، و تلك الرحلات نصنفها إلى مجموعتين :

أ. الرحلات العلمية : كان المغرب الأقصى بحواضره الزاخرة بالفقهاء و الأعلام كتافيلالت (سجلماسة) ، فاس ، و درعة الوجهة المفضلة – باعتبار القرب الجغرافي – لأكثر الطلبة و الذين نذكر منهم :

1. عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التمنطيطي (ت 1042 هـ) الذي رحل إلى سجلماسة و تتلمذ على ثلة من أشياخها كعبد الرحمن بن علي السجلماسي و أحمد بن عبد الله بن أبي محلي و غيرهم [1] .

2. مَحمد العالم بن أحمد الزجلوي (ت بعد 1174هـ) [2] ، الذي تنقل بين درعة و سجلماسة و تلمسان فمستغانم ، و أخذ عن شيخ الطريقة الناصرية أحمد بن ناصر الدرعي و عن عبد الواحد القدوسي و غيرهم ، و درَّس بمهدية من أحواز فاس ، قبل رجوعه إلى توات ، و تأسيس مدرسته العلمية بمسقط رأسه قصر زجلو .

---

[1] انظر : سلسلة علماء توات - الجزء الأول ، عبد الحميد بكري ، د.ب ، ص 24 .

[2] انظر : الباب الجامع من نوازل الزجلوي ، مخطوط . خزانة المطارفة ، دون رقم : ص73 و ما بعدها .

3. عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152 هـ) ، رحل سنة 1117هـ إلى فاس وتفقه بشيوخها ، و جلس للإقراء بجامع القرويين[1] ، و عاد منها سنة 1129 هـ فأحيى الزاوية التي أنشأها جده أحمد بن يوسف التنلاني (ت1078هـ) و جعلها قبلة لطلبة العلم .

4. عبد الرحمن بن عمر التنلاني (ت 1189 هـ) ، و له عدة رحلات كتب عنها ، منها رحلته إلى بلاد التكرور و رحلة إلى سجلماسة [2] .

ب. رحلات الحج : كانت تمثل فرصة للإفادة و الاستفادة ، يلتقي فيها طلبة العلم التواتيين بأقطاب المدرسة المالكية المصريين و الحجازيين ، ينهلون من علمهم و ينالون إجازاتهم .

2- **الكِتاب** :

إن الكم الهائل من العناوين لاسيما الفقهية التي لا تزال تحتفظ بها الخزائن لدليل على العناية التي كان يوليها المتعلمون و المعلمون للكتاب الفقهي ، و حرصهم على اقتنائه مشرقياً كان أو مغربياً ، و قد أسعفتهم القوافل التجارية المتقلبة بين أسواق المغرب و السودان بإيصاله إليهم .

ثم شهد القرن التاسع حدثاً علمياً بارزاً كان له ما بعده ، تمثل في إدخال الشيخ ميمون بن عمر (ت 890 هـ) نسخة من مختصر خليل إلى توات اقتناها من فاس[3] ، فصار محط إعجاب العلماء و تعلقت به همم المتعلمين ، و أصبح حفظه مبتغى الطلبة ، لأن حفظه يعدل الإجازة . و حين فشا بين الطلاب و عز

---

[1] ينظر : الغصن الداني في ترجمة و حياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، محمد باي بلعالم ، دار هومة ، الجزائر ، 2004 : ص9 .

[2] المرجع نفسه : ص 58 و ما بعدها .

[3] النبذة في تاريخ توات و أعلامها ، مرجع سابق: ص 107 .

عليهم فهمه طلبوا شروحه و حواشيه ، حتى أنه ليمكننا الجزم – بناء على مطالعة كتب النوازل – أنه ما كتب شيء على خليل مطولاً أو مختصراً إلا دخل توات .

معالم التطور الفقهي :

هناك معالم أربعة كبرى ترسم منحنى تطور الدرس الفقهي بتوات :

أولاً : التأليف : لم يكن علماء توات نزاعين إلى الكتابة و التأليف ، و هذا ما يفسر رحيل أغلبهم دون أن يُبقي أثراً علمياً ، غير أن ذلك لم يكن قانوناً عاماً ، فمن أعلام الفقهاء من كان بارع الكتابة غزير التأليف ، لاسيما بين أعلام القرن الثاني عشر كمحمد بن أب المزمري (ت1160) و عبد الرحمن بن عمر التنلاني و محمد بن العالم الزجلوي (ت1212) .

و قد كان أكثر التأليف الفقهي نظماً كنظم المزمري لسهو الأخضري أو شرحاً كشرح الزجلوي لمختصر خليل و نظم ابن عاشر .و لأن المذهب المالكي كانت له السيادة المطلقة و التفرد في كامل أرجاء الإقليم ، و انعدم المخالف فقد أغلق الباب أمام ولوج مجال الخلاف الفقهي ، و لأجل ذلك أيضاً فإنه لم يكن من أسباب التأليف الفقهي الانتصار للمذهب و الدفاع عنه ، بقدر ما كان الدافع تعليمياً .

و الذي يمكن ملاحظته أن تلك المؤلفات غلبت فيها المحاكاة ، فلم تظهر بها روح التحرر من أساليب القدامى ، و هي نفس الحال التي كان عليها الإنتاج الفقهي في الجزائر قاطبة ، كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله : (فلا نكاد نعثر على جديد في ذلك لا في الفكرة و لا في المنهج)[1] ، و يكفي لذلك

---

[1] تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16- 20 م) ، د. أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985: 2 / 70 .

مطالعة مقدمة الوجيز في شرح خليل[1] لمحمد بن العالم الزجلوي لنرى كيف أنه يستعمل نفس الرموز و الاصطلاحات التي اعتمدها الزرقاني في مقدمة شرحه على المختصر .

ثانياً : التدريس : تفوقت عناية الفقهاء بالتدريس على عنايتهم بالتأليف ، فصرفوا له جل أوقاتهم ، فهذا عبد الرحمن بن عمر التنلاني يصف مجلس شيخه عمر بن محمد المصطفى الرقادي الكنتي بقوله : (فألفيته مع طلبة بلده في غاية الاجتهاد بالتحصيل و المذاكرة ، يُدَرِّس من الضحى إلى قرب الظهر ، و يسمع صحيح البخاري مع شرحه القسطلاني ، يقرأ باباً من المتن و يُتبعه بالشرح إلى العصر ، و يدرس بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب ، و بعد المغرب يقرأ التصريح للشيخ خالد الأزهري)[2] . و ذلك إيماناً منهم بأن التدريس (هو المجال الطبيعي الذي تنتشر بوساطته كل العلوم ، فنشر العلم وطلبه بابه الواسع هو التلقي عن الشيوخ ، و يتأكد هذا الأسلوب في العلوم الشرعية و منها الفقه)[3] .

فتنوعت محاضن الدرس الفقهي ما بين المساجد و المحاضر (الكتاتيب) و الزوايا ، و تفنن الشيوخ في عملية التدريس بدءً باستقطاب الطلاب من مختلف الجهات و انتقاء ذوي المواهب منهم ، و انتهاء باعتماد عناصر التشويق في الإلقاء كالنكت و الألغاز الفقهية ونحوها .

---

[1] الوجيز في شرح خليل ، محمد بن العالم الزجلوي ، مخطوط ، خزانة محمد باي بلعالم ، دون رقم : ص 2 .

[2] الغصن الداني ، مرجع سابق : ص 24 .

[3] تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي ، محمد بن حسن الشرحبيلي ، طبعة وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1421 / 2000 : ص 317 .

ثالثاً : القضاء : برز القضاء كواجهة من واجهات التنظيم الاجتماعي بتوات ، يُنَاط به حفظ النظام و فض النزاعات و حماية الحقوق . و جدير بالذكر أن مؤسسة القضاء كانت تستمد سلطتها في توات من "الجماعة" ، والتي كانت ترشِّح لمنصب القاضي من زَكَتْ سيرته ، واشتهر في الناس علمه ، فكان من أشهر القضاة الفقهاء القاضي البكري بن عبد الكريم (ت 1133هـ) ، و ابنه عبد الكريم (ت 1174هـ) ، و إمام توات و فقيهها بلا منازع عمر بن عبد القادر التنلاني .

إن عمل القضاة – بطبيعته الفقهية – لم يكن ينماز عن أعمال المفتين ، وهؤلاء أيضاً كان لهم تدخل في فض النزاعات ، إذ لاعتبارات تاريخية ؛ بُعدُ دار القضاء و التي كانت غالباً هي تمنطيط، ومشقة الوصول إليها من جهة، و ثقة العامة بأهل الفقه والفتوى من جهة أخرى ، لم يكن يتردد الخصوم في رفع الخصومة إلى المفتين مباشرة حيناً ، و بعد صدور حكم القضاة أحياناً أخرى.

هذا التداخل بين عمل الفئتين – و إذا ما أخذنا في الحسبان توقُّع الاختلاف في الأحكام رغم وحدة المرجعية الفقهية – ولَّد شيئاً من النقمة لدى بعض الفقهاء على قضاة زمانهم ، و لعل عبد الرحمن بن إبراهيم الكنتوري، فقيه كورارة – شمال توات – و مُفْتيها (ت 1160هـ) كان الأكثر انتقاداً لأحكام القضاة كما تشهد بذلك نوازله[1] ، و في ذات النزعة يوافقه الإمام مَحمد العالم الزجلوي

و مع تولي القاضي عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري القضاء سنة 1174 هـ حدثت نقلة نوعية على صعيد العلاقة بين القضاء و الفقه ، حين أخذ

---

[1] انظر : مسائل القضاء و الشهادة من نوازل عبد الرحمن الكنتوري ، مخطوط ، خزانة الصوفي بدريان ، دون رقم : ص 2 و ما بعدها .

بما جرى عليه عمل القضاء في الأندلس ، و أحدث مجلساً للشورى جمع فيه أشهر أربعة فقهاء[1] كانوا بتوات على عهده .

رابعاً : الفتاوى و النوازل : برع الفقهاء المالكية في العناية بفقه النوازل جمعاً و تأليفاً ، و هذه الميزة بالأخص لدى فقهاء الغرب الإسلامي ، و قد أخذ الفقهاء التواتيون بنصيبهم من هذا الميدان ، إذ يبلغ الدرس الفقهي عندهم أوجه في تفاعل الفقه مع الواقع الاجتماعي ، فبرع الفقهاء في استثمار النصوص الشرعية و المدونات الفقهية ، ترجيحاً بين آراء المذهب ، أو قياساً على فروعه ، في أجوبتهم عن وقائع و قضايا حياتهم المستجدة .

لقد اشتهر في الإقليم عدد معتبر ممن شُغلوا بالفتوى ، و اشتهرت معهم فتاواهم ، في نوازل اجتماعية كنظام الرق الذي كان فاشياً في كل البلاد المغاربية ، خاصة تلك المرتبطة تجارياً بأسواق السودان الغربي ، أو نوازل اقتصادية كأحكام الفقارات و أنظمة السقي المتفرعة عنها ، و العقود الزراعية كالخماسة[2]

---

[1] و هم : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، محمد بن العالم الزجلوي ، عبد الكريم الحاجب البكري و محمد بن الحاج عبد الله بن عمر.

[2] الخماسة : أن يُساهم الخماس بعمله و يقّدم الآخر الأرض و البذور و المصاريف (النوازل الفقهية و المجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ/12- 15م ، محمد فتحة ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1999 : ص 380) . و قد تباينت الاجتهادات الفقهية في موضوع الخماسة الشائع في بلاد المغرب الإسلامي ، و أشهر الآراء فيه المنع ، غير أن الفقهاء بتوات مالوا إلى الترخيص فيه لذريعة الضرورة و ما عمت به البلوى و جرى به العمل ، و من ذلك قول ابن أب المزمري : أن إجارة الخماميس اليوم ببلادنا فاسدة ، كما لا يخفى ، و إنما رُخص فيها لأرباب الحوائط للضرورة (تحلية القرطاس بالكلام عن مسألة تضمين الخماس ، مخطوط ، خزانة كوسام ، دون رقم : ص 6)

و الخراصة[1] ، و غيرها من المسائل التي تُكسِب الفقه في الإقليم بعض الخصوصية .

لحسن حظ إقليم توات أن تلك النوازل وجدَتْ من يعتني بها جمعاً أو نسخاً ، ثم حفظاً ، فسلمت من يد الضياع، و قد بدأت أخيراً يد المحققين تمتد إليها - على استحياء - ليُسْهِم إخراجها في إعادة كتابة التاريخ الفقهي والحضاري لهذا الجزء من الوطن ، خاصة أنه ما فتىء الباحثون يُشيدون بالقيمة التاريخية للوثائق النوازلية.

إن كتب الفتاوى أو النوازل التواتية تنقسم حسب مسالك تأليفها إلى ثلاثة أنواع :

الأول - النوازل الإقليمية : و هي التي جَمعت فتاوى فقهاء إقليم توات ، وأظهر مثال عليه ، هو الموسوم بـ غُنْية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا و المسائل[2] ، و المشهورة بـ غُنية الشورى أو الغنية البلبالية لعبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، و منها أيضاً مسائل[3] عبد الله بن أبي مدين التمنطيطي جمع فيها أجوبة بعض شيوخه و معاصريه .

الثاني - النوازل الشخصية : و هي التي جُمِعت فيها فتاوى احد الفقهاء ، ولها أكثر من مثال كأجوبة عمر بن عبد القادر التنلاني و نوازل مَحمد العالم الزجلوي و نوازل الكنتوري و أجوبة عبد الرحمن بن عمر التنلاني .

---

[1] الخراصة : و هي أنواع : خراصة الأرض أو الماء أو هما معاً ، يأخذ العامل الأرض مع سقيها من ربها ، أو يأخذ الماء من مالكه ليسقي به أرضه ، و الناتج بينهما على نسب عادة محددة عرفاً .

[2] توجد لها أكثر من نسخة بخزائن ملوكة و كوسام و تمنطيط .

[3] مخطوط بخزانة تمنتطيط ، دون رقم .

الثالث - النوازل الخاصة (أو الموضوعية) : و هي الأجوبة المحررة في مسألة خاصة ، كجواب محمد بن أب المزمري الموسوم بـ تحلية القرطاس بالكلام على مسألة تضمين الخماس .و لها في إقليم كورارة نظير ، هو رسالة عبد الرحمن الكنتوري في بيع قضاة توات و كورارة لأصول الهاربين في المغارم .

خصائص الدرس الفقهي بتوات:

من مطالعة سير أعلام الفقه بتوات ، و استقراء كتاباتهم و نوازلهم – و لو جزئياً – يمكن أن نلحظ اختصاص الدرس الفقهي بالخصائص الثلاث الآتية :

1. **عملي** : حرص الفقهاء التواتيون على إبقاء اهتمامهم الفقهي آخذاً الوجهة العملية ، فلا نكاد نجد متسعاً لديهم للفقه النظري ، أو الافتراضي . وإذا كان هذا معلوماً في فقه النوازل ، التي توحي تسميتها بواقعيتها و عمليتها، فإن الأمر يمتد إلى التدريس ، فالعناية الفائقة التي أولاها الفقهاء و المعلمون لبعض المختصرات و المتون ، تلقيناً أو شرحاً ، تجد في البعد العملي ما يبررها ، و هو ما يقف أيضاً وراء إبعاد علوم أخرى خادمة لعلم الفقه ، كعلمي الأصول والقواعد الفقهية ، فإشراكهما في الدرس الفقهي لا يرقى لمستوى أهميتهما .

لأجل هذه الخاصية نجد فقهاء توات يصرفون نظرهم عن بعض أبواب الفقه أو تقل عنايتهم بها و ما ذاك إلا لقلة الحاجة إليها ، كالاستسقاء والخسوف و الكسوف في باب الصلاة ، و أبواب الدماء و الحدود ، و نحوها . ولهذا يعلل الزجلوي في نوازله إغفال الحديث عن مسائل الظهار بقوله : (والظهار لا تعرفه العامة عندنا)[1] .

---

[1] نوازل الزجلوي ، مصدر سابق : ص 77 .

بالمقابل يتسع البحث و يتشعب في الموضوعات الفقهية شديدة الصلة بطبيعة الحياة الاجتماعية و الاقتصادية ، كأحكام الجمعة ، و الأوقاف و البيوع والعقود الجارية على العقار النامي و الأنكحة و غيرها .

2. **وحدة المرجعية الفقهية :**

إن إقليم توات الواسع عرف الكثير من المشيخات العلمية في جهاته المختلفة ، والتي أسست مراكز علمية كثيرة، أهمها تمنطيط و تنلان و ملوكة في الوسط و مركزي زجلو و زاوية كنتة إلى الجنوب . هذه المراكز و غيرها ؛ حتى البعيدة كمراكز إقليم كورارة أو تيديكلت ، كانت تأخذ نفس الوجهة و تتأثر بنفس العوامل ، فهي تتفق في التقيُّد بالإطار المذهبي ، و تنهل من نفس المصادر ، بل تلتقي أغلبها في الأخذ عن شيخ واحد ، فمنذ الإمام عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152 هـ) الذي انتهت إليه الرياسة بتوات ، و يقول واصفوه بأنه (كان من غرائب الدهر ، و احد الأئمة المجتهدين)[1] ، لا نجد في توات إلا تلميذه أو تلميذ تلميذه .

هذه الوحدة تتمظهر في جملة من الأعراف الفقهية ، في العبادات أو المعاملات ، كالأذان الثلاثي للجمعة ، و قراءة الحزب الراتب في المساجد جماعة ، و الدعاء جماعة إثر الفرائض ، و صورة عقد النكاح و غيرها .

و كما سبقت الإشارة فإن مراجع الدرس الفقهي و مصادره لم تتنوع بالقدر الذي يوفر له ثراء و تنوعاً ، حيث إن طريقة المُقررات تبدو واضحة في التراث الفقهي بالإقليم ، ففي مجال التدريس يسيطر مختصر خليل على حلقات

---

[1] الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ، عبد القادر بن عمر المهداوي ، مخطوط ، الخزانة البكرية تمنطيط ، دون رقم : ص 4 .

الدروس المتقدمة[1] ، و أشهر شروحه المعتمدة عند التواتيين مواهب الجليل للحطاب (ت 954 هـ)، و شرح سالم السنهوري(ت 1015 هـ) ، و شرح علي الأجهوري (ت 1066 هـ) ، و شرح الزرقاني (ت1099هـ).

أما في مجال الفتوى و القضاء فتبرز منظومة تحفة الحكام لابن عاصم (ت 829 هـ) و شروحها ، ثم كتب الفتاوى كنوازل أبي الحسن الصُّغير (ت 719 هـ) ، و فتاوى البرزلي (ت 841 هـ) ، و نوازل إبراهيم ابن هلال (ت 903هـ) .

3. **التجريد** : على الرغم من الشهرة التي نالتها المدارس الدينية بتوات في تلقين العلوم الشرعية و تحفيظ القرآن خاصة، و ما عُرفت به بعض المساجد من سنة قراءة صحيح البخاري سنوياً ، و إجازات كثير من الأعلام في الحديث ، إلا أن الدرس الفقهي بقي بعيداً عن التأثر و الاستفادة من النصوص الشرعية ، والتزم المدرسون و الكُتَّاب و المفتون أيضاً اعتماد تجريد الفروع الفقهية ، بعرضها عاريةً عن أدلتها أو شواهدها الأصلية ، فلا تُذكر الآية و الحديث إلا نادراً و على غير جهة الاستدلال ، و تطَّرد هذه الخاصية عند المفتين حتى عندما يكون أصل جواب المسألة نص الآية أو لفظ الحديث . فمثلاً يُجيب الزجلوي (فيمن اشترى نخلاً قد أبّرتْ بأن ثمرها للبائع ، إلا أن يشترطه المبتاع كله ، و لا يجوز له اشتراط بعضه ، فإن وقع واشترط بعضه فسد البيع)[2] ، دون أدنى إشارة إلى أصل الجواب و هو الحديث الشريف[3] .

و ختاماً:

---

[1] دروس المبتدئين الغلبة فيها لمنظومة المرشد المعين لابن عاشر (ت 1040 هـ).

[2] مسائل البيوع من نوازل الزجلوي ، مصدر سابق .

[3] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (من باع نخلاً قد أبرت فثمرها للبائع إلا أن يشترط المبتاع) البخاري (2279 ، 2716) ، و مسلم (1543)

فإن حاضرة توات كانت أقل حظ من حواضر جزائرية أخرى كقسنطينة أو تلمسان أو بجاية أو مازونة ، سواء في السبق الزمني أو شهرة الأعلام و سمعة المنتوج المعرفي ، و إذا كنا قد تعرفنا ظروف و أسباب التأخر فما من شك أن هذه الحاضرة قد استفادت من رصيد سابقاتها ، و يكفي لذلك أن فيها امتدادا للحركة الإصلاحية لمحمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 909 هـ) ثم نجد من شيوخ أحد مؤسسيها و هو عبد الكريم بن مَحمد البكري (ت 1042 هـ) والشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري (ت 1076 هـ)[1] ، و من شيوخ الجيل الثاني كمَحمد العالم الزجلوي (ت بعد 1174 هـ) وشيوخ تلمسان على عهده .

والخلاصة : لقد نجح فقهاء توات برغم الصعوبات الموضوعية في وجه النشاط العلمي أن يُوجدوا نموذجاً لدرس فقهي يتلائم و طبيعة الإقليم ، ويُجيب عن الحاجة التعليمية و الإفتائية لأهله ، و يُقدمونه إضافة نوعية للدرس الفقهي بالجزائر .

---

[1] انظر : سلسلة علماء توات – الجزءالثاني ، عبد الحميد بكري ، دار الغرب للنشر و التوزيع، و هران ، 2008 : ص 42 .